١ نقد الفكر الدينى . .

كتاب صدر عن دار الطليعة ببيروت ، وتكررت طبعاته فى زمن وجيز ، لا لطرافة المادة التى يقدمها ، أو لجدتها ، ولكن لغرابتها ، وجرأتها ، وقدرتها على تجلية الباطل فى صورة الحق ، ولشراسة الدكتور (المسلم) فى التهجم على المقدسات ، وتطويع كل الوسائل الممكنة لديه فى الإنكار والرفض ، والنيل من أسس نعتز بها ، ونستمسك ، ونقيم عليها كياننا الروحى والاجتماعى والقومى . .

وكان بوسعنا أن نتجاهل الكتاب والكاتب بدعوى أن فى عرض هذه الأفكار الكافرة إشاعة للكفر . . لكن هل يكفى أن نتجاهل الجراثيم لنتقيها ؟!

إن الدكتور (صادق جلال العظم) يمتاز بقدرة على الحجاج ، ويستغل (الأقلام الدينية) فى عرض مفتريات . . ومن هنا كانت خطورة ما قدم ، وتكون خطورة السكوت على هذا اللون من التناول ، لا لأنه يعرض الأفكار الإسلامية عرضًا خاطئًا ، ولكن لأنه يعرِّى منهجًا محسوبًا على الإسلام فى تناول الفكر الدينى ، ولأنه يعمل فى إطار سياسى مرسوم ، يقصد به التشكيك والبلبلة الفكرية ، وصولا إلى تمزيق الوحدات الاجتماعية ، إلى الشعور بالاغتراب ، إلى الجفاف الروحى ، إلى الفكر المادى . .

و (الدكتور) لا يداجى ، ولا يخاتل ، فيما يعرض ، وفيما يقدم ، ليوهمك بأنه يملك الحقيقة ، فلا حاجة به إلى أن يلف ويدور ، ولأنه يعلم - بحكم الممارسة السياسية - أن المواجهة تختصر الطريق ، وأن المبادرة تشل إرادة الخصوم .

* * *

صدّر كتابه بفقرة لياسين الحافظ تقول :

« إن نقد جميع جوانب المجتمع العربى الراهن وتقاليده نقدًا علميًّا علانيًّا صارما ، وتحليلها تحليلا عميقًا نافذًا – واجب أساسى من واجبات حركات الطليعة الاشتراكية الثورية فى الوطن العربى ، وإنَّ مثل هذا النقد هو وحده القادر على تهيئة الظروف التى تمكن من اقتلاع جميع الجوانب السلبية المعطلة والكابحة فى إرثنا الاجتماعى » .

« إن تفجير الأطر التقليدية للمجتمع العربى سيؤدى بالضبط إلى إسراع وتيرة العمل لبناء مجتمع عربى عصرى كليًّا وبدون هذا التفجير فإن إمكانية نمو منتظم وسريع وثورى فى البنيان الفكرى والاجتماعى التقليدى للشعب العربى سيغدو أمرًا مشكوكًا فيه ، إن لم نَقُل مُستحيلا ، كما أنه فى نفس الوقت – سيلقى بظلاله السلبية المعطلة للنمو الاقتصادى الجاد السريع » ص ٥ ط ٣ سنة ١٩٧٢ م .

هذا هو الهدف . . « اقتلاع جميع الجوانب السلبية المعطلة للنمو الاقتصادى السريع . . وتفجير الأطر التقليدية لبناء مجتمع عربى عصرى كليًّا » . .

والاقتلاع والتفجير فى الواقع الاشتراكى الذى تعيشه كثير من الدول حولنا لا يمثل إلّا بريقًا لفظيًّا مجازيًّا ولكنه الحقيقة الممثلة فى (التصفية الجسدية) ، وفى إهدار الحرمات ، وامتصاص كل الطاقات الخيرة الواعدة ، حتّى إذا تجردت الأرض ، وجفت الينابيع الموروثة ، بدأ التفكير فى البناء ، وأى بناء بعد أن تتقطع الأسباب ، وتنهدّ القوى ، وتموت العزائم ؟!

وعلى هذا يكون مفهوم (السلبية والتقليدية والتعطيل) . .

وما أكثر ما حمّل (اليساريون المتطرفون) الألفاظ من دلالات ، وما أكثر ما أضافوا إلى اللغة ألفاظًا ذات حروف عربية ومضامين خبيثة ، غريبة على الذوق العربى والوجدان العربى .

* * *

وقدم (الدكتور) لكتابه بقوله :

« ينبغى أن يكون واضحًا أن الفكر الدينى . . . ليس إلّا الصعيد العلوى الواعى لكتلة هلامية شاملة ، غير محدودة الجوانب من الأفكار والتصورات والمعتقدات والغايات » ص ٧ .

الرسالات السماوية إذن (كتلة هلامية غير محدودة الجوانب) . . وبهذا تخلو من مفهوم (الرسالة) الذى هو تشريع ، أوامر ونواه ، حقوق وواجبات . . ويحار المرء : كيف يجمع بين هذا (المفهوم) وبين (الصعيد العلوى الواعى) ؟ وكيف تكون (الأفكار والتصورات والمعتقدات والغايات) لكتلة هلامية ؟!

أيكون هذا القول منصرفًا إلى ما نسميه (الغيبيات) وهل كل الفكر الدينى غيبيات ؟

إن (الفكر الإنسانى) لا يمتد إلى كل شىء ، ولا ينكشف له كل شىء . . ومن البديهات أن الغيبيات جزء من حياته ، رضى أم كره ، فإذا كان لا يعلم ما يجرى خلف بابه ، أو تحت نافذته ، بل لا يعلم ما سيحدث له إن لم يكن لا يعلم ما حدث له ، فكيف ننكر أن (يغيب) عنه من أمر الروح والملائكة والجن والجنة والنار ؟!

ما أجمل قول الحلاج : يا عجبًا ممن لا يعرف شعرة من بدنه كيف تنبت سوداء أم بيضاء ، كيف يعرف مكنون الأشياء ! !

الفكر الإنسانى قاصر ، ونموه دلالة قصورة ، ومن قصوره ألّا تكتمل (الأفكار والتصورات والمعتقدات والغايات) نابعة من ذاته ، ومن ثم كانت الحاجة إلى الرسالات السماوية ، تقوّمه ، وتبصره ، وتهديه ، ولو ترك أمره بيده لما كانت الهداية ، لأن (الأفكار والتصورات والمعتقدات والغايات) الإنسانية تأخذ شكلا فرديًا وشكلا جماعيًا ، ومع الفردية والجماعية تتطور أو تتصارع ، وتتوالد ، وتتفانى ، ولا يكون التكامل ، وإن حظيت فى مرحلة بالتأييد ، وبالمغالاة فى التقدير .

* * *

وأول فصول الكتاب بحث عنوانه : **الثقافة العلمية ورؤوس الفكر الدينى**

ألقى جزءًا منه فى النادى الثقافى العربى ببيروت ، ونشر فى مجلة النادى (الثقافة العربية) أيار سنة ١٩٦٥ ، والنادى والمجلة معروفان بلونهما الأحمر . .

وجعل شعارًا لهذا البحث قول أبى نواس : « وداونى بالتى كانت هى الداء » . . ثم مضى يقول :

(إننا نمر ، فى طور نهضة مهمة ، وبانقلاب علمى وثقافى شامل ، وبتحويل صناعى واشتراكى جذرى ، لأننا تأثرنا إلى أبعد الحدود بأخطر كتابين صدرا فى القرنين الأخيرين : رأس المال وأصل الأنواع) ص ٢٠ .

ومع هذا فأمامنا طريق طويل للنضال ، لأنه :

(يجب ألّا يغيب عن بالنا أنه مرت على أوربا فترة تتجاوز القرنين ونصف القرن قبل أن يتمكن العلم من الانتصار انتصارًا حاسمًا فى حربه الطويلة ضد العقلية الدينية التى كانت سائدة فى تلك القارة ، وقبل أن يثبت نفسه تثبيتًا نهائيًا فى تراثها الحضارى ، ولا يزال العلم يحارب معركة مماثلة فى معظم البلدان النامية ، بما فيها الوطن العربى ، علمًا بأنها معركة تدور رحاها فى الخفاء ، ولا تظهر معالمها للجميع إلّا بين الفينة والأخرى) ص ٢١ .

ونتساءل : لماذا المعركة بين العلم والدين ، ولكل ميدانه ، إذا قصدنا بالعلم دائرة النشاط العقلى فى المجال المادى ، فإذا قلنا : إن الدين يعالج الشئون الروحية والأخلاقية والإنسانية بعامة ، فقد أصبح العلم فى خدمة الدين ، أو فى خدمة المجتمع الإنسانى ، الذى يقوم الدين على تقويمه وهدايته . .

ثم ، إذا كانت هناك (معركة تدور رحاها فى الخفاء) ، ممثلة فى نشاط الخلايا الشيوعية ، أو الحاقدين والمتمردين ، فإن (الخفاء) يوحى بأنها ليست معركة ضد الدين بقدر ما هى معركة ضد رجال الدين . والمعركة ضد رجال الدين لا تعنى بالضرورة أنها ضد الدين ، لكن المعركة فى الحقيقة معلنة بقدر ما يملك هؤلاء

الناقون (الكلمة) ، ومن ورائهم تنظيمات وأموال تغذى هذه المعركة . وهذه المعركة تأخذ أشكالاً وأبعادًا مختلفة ، وتتلون بألوان كثيرة ، لا للدلالة على عمق وسعة المعركة بل بسبب خبث وضعف أداة المثيرين والمؤرثين لنارها ..

يقول (الدكتور) :

(من نافل القول أن نردد أن الطريقة العلمية فى الوصول إلى معارفنا وَقناعاتنا عن طبيعة الكون ونشأته ، وعن الإنسان وتاريخه ، تتنافى تمامًا مع هذا المنهج الإتباعى السائد فى الدين) ص ٢٢ .

ويلاحظ أن قوله (تتنافى تمامًا) منطق غير علمى ، لأنها قد تختلف ، لكنها (لا تتنافى) بل تتكامل ، لأن الدين لا يحدث عن طبيعة الكون ونشأته ، وعن الإنسان وتاريخه إلّا بشكل (إجمالى) ، يخدم (الدعوة) ، ويؤدى إلى طاعة خالق الكون والإنسان والكشوف العلمية تزيد المؤمن إيمانا ، لأنها تريه عظمة الخالق فى خلقه ، أما الذين فى قلوبهم مرض فإنهم يتلمسون أسباب الرفض والإنكار ، ويعكسون إفرازاتهم الخبيثة على كل ما حولهم .

ثم من أين جاءه أن المنهج الإتباعى (سائد فى الدين) ؟ قد يكون الأقرب إلى منطقه أن يقول (سائد فى الفكر الدينى) ، أما الدين ، وبرغم دعاوى نسبته إلى (الرسل) فإنه منهج أصيل ، قائم على أسس ثابتة ، لم يسبق إليها بما يمكن أن يكون مقلدًا له

أما القول بأن : (وظيفة المؤمن والحكيم والفيلسوف والعالم ليست اكتشاف حقائق جوهرية جديدة ، أو اكتساب معارف هامة لم تكن معروفة من قبل ، وإنما العمل للوصول إلى نظرة أعمق وفهم أشمل للنصوص المنزلة ، والعمل للربط بين أجزاء هذه النصوص وتأويلها . ومن ثم تأويل التأويلات ، حتى تستنبط معانيها الدفينة ، ويتوصل إلى الحقائق والمعارف الكامنة فيها منذ الأزل ، وهذا العمل ضرورى وجوهرى ، استنادًا إلى الآية القرآنية : « ما فرطنا فى الكتاب من

شيء !) . ص ٢٣ . فهذا تلاعب لفظي يتوصل به إلى نتيجة رضيها مسبقًا : (فلا عجب إذن إذا وجدنا التاريخ الفكرى للدين يتألف دائمًا من تفاسير ، وشروح ، وشروح الشروح) ص٢٣ . لأن الحقيقة غير المنكورة أن هناك نصوصًا دينية وشروحًا ، وشروحًا للشروح ، لكن ليس مصدرها عقم الفكر الديني ، ولكن تطور هذا الفكر ونموه وقدرته على الحركة ، إذ لابد أن تتطور الرؤية للنص بتطور الثقافة الإنسانية والمؤثرات العامة ، وهذا ليس مقصورًا على النص الديني ، بل على كل النصوص ، فهناك شروح لأرسطو وأفلاطون ، وشروح وشروح الشروح لماركس ولينين ، ولا مأخذ على هذا كله من هذه الزاوية .

ثم إن هذه الحقيقة لا تمثل (منهجًا) ، ولكنه لون من النشاط الفكرى ، أما إذا كان هناك تطلّب للمنهج فلينظره فى كتابات المعتزلة والصوفية ، وفى كتابات أهل السنة فى الملل والنحل . وهناك دراسات وافية ، قديمة وحديثة ، عن مناهج هؤلاء جميعاً .

أما (أن الروح العلمية بعيدة كل البعد عن هذا المنطق وهذه النظرة الدينية ، لأن العلم لا يعترف بوجود نصوص لا تخضع للنقد الموضوعى والدراسة الجدية ، ولأن من أبرز سمات النشاط العلمى فكرة الاكتشاف) ص ٢٣ فهذا افتراء آخر ، لأن (فكرة الاكتشاف) بالمفهوم العام تتمثل فى دعوة القرآن الكريم إلى النظر فى أنفسنا ، وإلى النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وإلى النظر فى تاريخ من سبقنا ، ومثل هذا النظر يولد المعرفة ، ويحقق اليقين .

ثم إن الدين لا يقف دون (النظرة العلمية) التى (تخضع النصوص للنقد الموضوعى) ما دام الناقد يملك عدة النقد وآدابه ، ويتعرف المنهج الدينى ، لأنه بهذا النقد الأمين الذى يتحرى (الحقيقة) ، ولا شيء إلّا الحقيقة – يستطيع (اكتشاف) دلالات خفيت عليه ، وهى فى جملتها تمثل حقائق إنسانية .

لا حقائق مادية ، لأن ما تضمه النصوص من حقائق مادية إنما هو فى خدمة الحقيقة الإنسانية أو الحقيقة الكونية بصورة عامة .

* * *

ويدّعى : أن الإسلام أصبح (الأيديولوجية الرسمية للقوى الرجعية المتخلفة فى الوطن العربى وخارجه) ص ٢٣ ولو سلمنا بهذا فالذنب ليس ذنب الإسلام ، بل ذنب الذين يتظاهرون بالإسلام ، لأن الإسلام قوة ثورية خيرة ، ترسم الطريق إلى وحدة الإنسانية ، القائمة على المحبة والمساواة ، فى الحقوق والواجبات ، وعلى الحرية والعزة ، بحيث لا يخضع الإنسان إلّا لله ، ولا يعتز إلّا به ، لا أن يخضع خضوعاً أعمى لزعيم أو مذهب ، ولا أن يسخر قواه التى منحها الله إيّاه من أجل (الاقتلاع والتفجير) والتخريب والهدم ، وشن الحرب الطبقية ، وإفقار الأغنياء ، وزيادة فقر الفقراء ، من أجل أن تسود عصابة تعتصر كل الخيرات ، وتعيش فى رفاه وتجبر الأباطرة والملوك .

* * *

ويدعى أن (الدين بطبيعته مؤهل لأن يلعب هذا الدور المحافظ ، وقد لعبه فى جميع العصور بنجاح باهر ، عن طريق رؤياه الخيالية لعالم آخر تتحقق فيه أحلام السعادة) ص ٢٤ .

قد يكون هناك من استغل الدين لطمع دنيوىّ ، وقد يكون للأمل فى ثواب الآخرة ما يدعو إلى الرضا والاستهانة بعذابات الدنيا ، لكن أن تتحول (أحلام السعادة) فى الآخرة إلى (رؤيا خيالية) فهذا هو التجاوز الذى يقوم على إنكار البعث ، وإنكار الحساب والثواب والعقاب ، مع أن المنطق العادل الذى أقرته الفلسفات (غير المادية) ألّا تنتهى حياة الإنسان المتنامية بهذا الموت العارض . ثم إن ميزان الحياة القائم على العدالة والمحبة والخير والتضحية مرده إلى الإيمان بالآخرة ، وإلّا أصبحت الدنيا غابة ، يسعى كلّ من فيها – خلال حياته التى

لا يدرى متى تنتهى – إلى أن ينال أكبر نصيب من السعادة ، فى حدودها الموهومة والمتخيَّلة ، ولعل هذا ما يفسر جنوح (الماديين) إلى العنف والقسوة والتضحية بالملايين ، فى سبيل التسلط والانتقام وإشباع الغرائز الجامحة ، يقول ديستوفسكى على لسان أحد أبطاله : (إذا كان الله غير موجود فكل شىء مباح) .

ويقول أفلاطون (الوثنى) فى جمهوريته : إن الرجل العادل إذا عانَى فى حياته الفقر والمرض أو غيرهما من المصائب فسوف تكون عاقبة أمره خيرًا ، سواء فى هذه الحياة الدنيا أو فى الآخرة ، لأن الآلهة لن تهمل من جاهد نفسه حتى صار عادلا ، ومن استطاع ببره وفضيلته أن يتشبه بالآلهة على قدر طاقته .

ويقول فى كتابه (جورجياس) : إن « راداسانت » يحاكم النفوس فى الحياة الآخرة ، فيرسل النفوس الشريرة تهوى إلى أعماق الجحيم ، ويرسل أرواح الفلاسفة إلى الجزر السعيدة .

وبهذا قال أرسطو وزارادشت وكثير من المفكرين الذين آمنوا بالحياة وبالإنسان ، ولم يقعوا تحت طائلة العبثية والعدمية الصماء ، ولم يقعوا فى إسار الإنكار والرفض لمجرد أن عيونهم لا ترى ، وأن آذانهم لا تسمع ، وأن قلوبهم خاوية ، وأن عقولهم زاوية .

وما أجمل قول جلال الدين الرومى فى هؤلاء المُفكرين عن عمى وغباء :

لو أن شخصا قال لجنين فى الرحم : إن فى الخارج عالمًا بالغ النظام ، أرضًا طيبة ذات عرض وطول ، فيها مائة نعمة ، وكثير من الأكل ، وجبالا وبحارًا ومروجًا وبساتين وحدائق ومزارع ، وسماءً سامقة العلو ، مليئة بالضياء ، وشمسًا وقمرًا ومائة من الكواكب ، وحدائق حافلة بالأعراس والولائم .

إن عجائب هذا العالم لا يحيط بها الوصف ، فلماذا أنت فى هذه الظلمة أسير المحنة ؟

إنك تحتسى الدماء ، وأنت مصلوب فى مكان ضيق ، أسير حبس ودنس وعناء .

لكَان الجنين – بحكم حاله – مُنْكِرًا ذلك القول ، مُعرِضًا عن تلك الرسالة ، كافرًا بها قائلا : إن هذا محال ووهم وخداع . . ذلك لأنه خيال الأعمى ، لا تصور له . .

وهكذا عامة الخلق فى هذه الدنيا ، يحدثهم المرشدون الروحيون عن هذه الدنيا ، قائلين : إنها عالم بالغ الظلمة والضيق ، لكنّ خارجها عالم تسامى عن الروائح والألوان ، فما تنفذ إلى سمع أحدهم كلمة قط ، فالطمع حجاب جسيم كثيف . . إن الطمع هو الذى يسد الأذن عن الاستماع ، والغرض هو الذى يغمض العين عن الاطلاع[1] .

° ° °

ويدعى أن (الدين بديل خيالى عن العلم ،-ولكن تنشأ المشكلة عندما يدعى الدين لنفسه ولمعتقداته نوعًا من الصدق ، لا يمكن لأى بديل خيالى أن يتصف به ، إن محاولة طمس معالم النزاع بين الدين والعلم ليس إلّا محاولة يائسة للدفاع عن الدين ، يلجأ إليها كلما اضطر الدين أن يتنازل عن موقع من مواقعه التقليدية ، أوكلما اضطر لأن ينسحب من مركز كان يشغله فى السابق ، إن نمط هذه العملية معروف جيداً ، إنها تبدأ بصدام شديد بين النظرة العلمية الجديدة حول موضوع ما ، وبين النظرة الدينية السائدة إلى الموضوع ذاته ، وبعد نزاع قد يستمر سنين طويلة تنتصر النظرة العلمية الجديدة ، وتسود بين كبار المفكرين ، وتنتشر بين الفئات المثقفة تمامًا ، عندما يوشك العلم أن يتجاوزها إلى نظرة أفضل ، عندئذ يقول أصحاب النظرة الدينية ، إنه لم يكن من موجب لهذا النزاع أصلا ،

---

(١) جلال الدين الرومى – د كفافى – بيروت سنة ١٩٧١ ص ١٣٣/ ١٣٤

لأن الخلاف لم يكن بين جوهر الدين وروحه من جهة وبين العلم من جهة أخرى ، لذلك لا يضير الدين أن يتنازل للعلم عن أمور لا تمس روحه ، ولكن الحق يقال ، إن هذا النمط من التفكير يخبئ وراءه سلسلة طويلة من التراجعات الهامة والحاسمة اضطر إليها الدين عندما وقف وجهًا لوجه أمام العلم) ص ٢٤ .

لو أن (الدكتور) فحص مقدماته التى بنى عليها نتائجه لأراح واستراح ، ولكنه مصر على المغالطات التى تخدم أهداف (الاستعمار الأحمر) الذى كشف عن مخالبه وأنيابه فى كثير من بلاد الدنيا . . ويتعامى العملاء والأدعياء عن الحقائق المرة التى تقوم على الإبادة والتخريب ، على أمل أن يكونوا فى يوم الفئة القليلة المستغلة المستبدة ، أو فى ركاب هذه الفئة . .

يقول : (إن الدين بديل خيالى عن العلم) ، مع أنّ الدين غريزة ، والإيمان فطرة ، وهذه حقيقة نفسية حدثت بها النصوص الدينية ، وأيدها علم النفس وعلم الاجتماع ، والغريزة والفطرة أصل لا بديل ، وحقيقة لا خيال ، لكن الكاتب (الدكتور) يريد اختلاق معارك بين العلم والدين ، ينتصر فيها العلم ، وينهزم الدين ، مغطيًا انسحابه بما يثير من غبار ! !

وقد سبقت الإشارة إلى أن منهج الدين وميدانه غير منهج العلم وميدانه ، وأن العلم المرتكز على قاعدة نفسية سليمة يؤدى إلى الإيمان وتعميقه ، والعلم مع النفوس القلقة المضطربة يساعد على التمرد والطيش والتجاوز ، شأن أية قوة مادية ، فالمال والجاه يفعلان هذا الفعل ، وإن اختلفت الصورة . .

وقد ثبت أن الدين يكثر طلابه فى حالة الإحساس بالضياع ، لأن فيه العزاء ، ولأن الحقيقة الإنسانية الجاحدة تتجلى فى قول الله سبحانه : (وإذا مس الإنسان الضّر دعانا لجنبه ، أو قاعدًا ، أو قائمًا ، فلما كشفنا عنه ضُرّه مرّ كأن لم يدعنا إلى ضُرّ مسّه) (يونس ١٢) .

الدين عزاء فطرى ، وعلاج نفسى ، وملاذ الضائعين والخائفين والمعوزين ،

لأنه سبيل الارتباط بالقدرة الإلهية ، وبالقوة الكونية المسيطرة ، يستوى فى ذلك العالم والجاهل ، إلى حد ما ، وأى منكر للكائنات غير المرئية ، المعتز بعلمه ، حين يحتويه الظلام ، سيتعرى عن مكتسباته العزيزة ، ضارعًا إلى الله . ليس هذا بحكم مواريث البيئة ، بل هى (فطرة الله التى فطر الناس عليها) . (الروم ٣٠)

ولعل (فرعون) الممثل للقوى المادية ، حين أدركه الغرق ، وقال آمنت بالذى آمن به موسى ، خير معبر عن هذه الحقيقة . فالدين حقيقة قائمة فى البنيان الإنسانى ، بل فى كل بناء ، (ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض) (النحل ٤٩) ولكن دواعى الغفلة ودواعى الغرور تدفع إلى الاعتزاز بالإثم ، وإلى أن يعرف الإنسان بما لا يعرف ، تطاولا وادعاءً وجحودًا .

ولو أن الدين انهزم فى معاركه مع العلم ماكان له أن يعيش فى عصر الذَّرَّة والصاروخ وسفينة الفضاء ، وماكان بوسعه أن يقف بصدور عارية فى وجه أعتى وسائل الإبادة التى يملكها الشيطان الأحمر .

إن المعركة لم تقم بين الدين والعلم ، ولكن بين رجال الدين ورجال العلم ، أو بين سلطان دنيوى وسلطان آخر ، ومن هنا كان تساقط الحجج ، وكانت الهزائم رهنًا بقدرة كل فريق على الإبانة ، لا بقدرة الدين ولا بقدرة العلم .

* * *

ويقول : (إن الاعتقاد بأننا سنلقى فى العالم الآخر أولئك الذين نكنّ لهم الحب يعطينا أكبر العزاء عند موتهم ، ولكنى لا أجد أى مبرر لافتراضنا أن الكون يهتم بآمالنا ورغباتنا . ولا أحسب أنه من الصواب والحكمة أن نعتنق آراء لا تستند إلى أدلة بينة وعلمية) ص ٢٧ .

وهى دعوى اصطنعها الكاتب ، لأن أحدًا لم يقل بأن الآخرة مطلب لقاء الأحباب : (يوم يفرُّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم

يومئذٍ شأن يغنيه) (عَبَس ٣٤/٣٧) . وإنْ كان من كمال السعادة فى الجنة أن يجتمع شمل الأسرة المؤمنة الصالحة . .

ركز على الجانب العاطفى – وهو ما تلقفه من كتابات وثنية – ليشير إلى أن العالم الآخر من صنع الإحساس بالفراغ ، أو الشوق إلى المجهول ، وليس حقيقة دينية ، عالجها القرآن الكريم فى آيات كثيرة ، لأنها إحدى ركائز الإيمان ، ولأن الخير والشر والطاعة والمعصية رهن بما يجرى فى الآخرة من حساب ، ولأن المشركين طالما عجبوا من البعث بعد الموت : « أئذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا ، أئنا لمبعوثون » ؟ (الصافات ١٦) . (إنْ هى إلّا موتتنا الأولى وما نحن بمُنْشَرين) . (الدخان – ٣٥) .

و (الدكتور) ما زاد على أن ردد ما قاله المشركون منذ قرون طويلة ، ولم يكلف نفسه جهد الإمساك بالقرآن الكريم ، ليعرف ما إذا كانت هناك (أدلة بيّنة وعلمية) أم لا . .

إنه لا يؤمن إلّا بما يرى ، مع (علمه) أنه لا يرى ملايين الكائنات الدقيقة التى تسكن جسمه ، وتسكن الغلاف الجوى الذى يحيط به ، إلّا بوسائل (علمية) مكبرة ، كما أنه لا يرى ملايين الأجرام السماوية ، مع ضخامتها ، ولا يدرى من أمرها ، مع قدرته (العلمية) على الوصول إلى القمر والمريخ .

ومع أن العلم لا يجرؤ على القول بأن حركة الأجرام السماوية (وكلٌّ فى فَلَك يسبحون) منذ ملايين السنين – يمكن أن تتم بهذا التنسيق والتناسق الرائع بفعل الطبيعة أو المصادفة فإن (الدكتور) ينكر وجود الله ، مكتفيًا بذكر (الكون) ، وكأنه بهذا الإنكار قد احتفظ لنفسه بحق (المعرفة) ، مع أن (الإنكار) يمثل عجزًا وضعفًا وخذلانا ، وهو موقف الكافرين منذ الجاهلية الأولى ، « وما يُهلكنا إلّا الدّهر » (الجاثية ٢٤) فهل الدكتور يمتص أفكاره من قبور الجاهلية فى عصر الألكترون والنيترون ؟ .

الماركسية دين :

(إن الاشتراكي الحقيقي لن يكون مسروراً عندما يكتشف أنَّ أهم مبدأ في عقيدته هو الإيمان بالله) ص ٤٧ .

إعلان صارخ مهد له بقوله :

(أما النظرة العلمية فقد عبر عنها أحسن تعبير فيلسوف وعالم رياضي آخر – لا بلاس – Laplace عندما قدم كتابه نظام الكون هدية إلى نابليون ، فسأله الإمبراطور : وما المكان الذي يحتله الله في نظامك ؟ فأجاب لا بلاس : الله فرضية لا حاجة لي بها في نظامي.. فهل من عجب إذن أن نسمع نيتشه يعلن في القرن الماضي أن الله قد مات ؟ وهل باستطاعتنا أن ننكر أن الإله الذي مات في أوربا بدأ يحتضر في كل مكان ، تحت وقع تأثير المعرفة العلمية ؟) ص ٢٧ .

(إنَّ النظرة العلمية التي وصل إليها الإنسان عن طبيعة الكون والمجتمع والإنسان خالية من ذكر الله ، تماماً كما قال لابلاس) ص ٢٨

مجرد أن يقول لابلاس أو نيتشة من الملاحدة – قولا في حالة من العمى أو الهذيان ، فإن هذا القول في نظر (الدكتور) يمحو كل قول جاء به الرسل والأنبياء والحكماء والفلاسفة والعلماء ، ويغطي على كل هذا النشاط الديني العارم المتمثل اليوم في شباب الجامعات ، وبخاصة كليات العلوم والهندسة والطب .

ويورد (قطعة أدبية) لبرتراند رسل بعنوان (عبادة الإنسان الحر) تقول بان الكون نشأ من (السديم الحار الذي دار عبثًا في الفضاء عصوراً لا تعد ولا تحصى ، ثم بدأ يتقولب ، فخرجت منه الكواكب ، وبردت . . . إلخ) ص ٢٥/٢٦ .

ونحن – إذا تجاوزنا عن كلمة (عبثًا) لعامل أو لآخر – نجد أن قول (رسل) لا يبعد عن قول الله سبحانه : (ثم استوى إلى السماء – وهي دُخان فقال لها وللأرض : ائتيا طوعًا أوكرهًا قالتا : أتينا طائعين) . (فصلت – ١١) .

ثم إن قول (رسل) لم ينكر أن هذا تم بإرادة الله ، لأن هذا السديم الحار لا يتقولب فى ملايين الشموس التى تدور فى مدارات منتظمة ، دون أن تتصادم . على مدى ملايين السنين ، مستقلة عن إرادة عقل كلى يحكم هذا النظام الكونى . .

ومع أن رسل وغيره من المتحدثين عن أولية الكون إنما يتحادثون عن ظن وحدس وتخمين ، ممكن يبعض الخيوط التى لا تملك الجزم أو اليقين . . ومع أن (الاعتراف الصحيح بأننا لا نعرف ما لا نعرفه من أهم مقومات التفكير العلمى) ص ٢٩ – فإن (الدكتور العالم) يأبى إلّا أن يكون الرفض والإنكار سبيله ، بحيث إذا قلنا من أين جاء السديم ؟ قال : ومن أين جاء الله ؟

(وبذلك يحسم النقاش ، دون اللجوء إلى عالم الغيبيات ، وإلى كائنات روحية بحتة لا دليل لدينا على وجودها) ص ٢٨ وينسى (الاعتراف الصحيح بأننا لا نعرف) ، ويبنى على هذا موقفًا عامًّا من الأخبار الدينية ، فيقول :

(كيف يكون موقف الإنسان الذى تعرض للثقافة ، وتأثر بها تأثُّرًا جذريًّا ، من المعتقدات الدينية التقليدية والمؤسسات التى تتجسد فيها ؟ أيستطيع هذا الإنسان أن يستمر فى الاعتقاد بآدم وحواء ، وبالجحيم والنعيم ، وبأن موسى شق البحر الأحمر ، وحوّل عصاه حية تسعى ؟ كيف يكون موقف الإنسان الذى نشأ نشأة دينية ، وتقبلها جملة وتفصيلا ، من النظرة العلمية الطبيعية للحياة وللكون والإنسان ؟ من العسير أن نجد بيننا شخصًا يتمتع بشىء من الحس المرهف ، وبقسط ولو متواضع من الذكاء والثقافة العلمية ، لم يعانِ التوتر الذى تنطوى عليه هذه الأسئلة ، والقلق الذى تثيره فى إحدى مراحل حياته ونموه) ص ٢٩/٣٠ .

وما أظنه يغيب عن فطنة (الدكتور) أن القلق طبيعة مرحلية ، نتيجة الانكشاف على عالم لم يستطع أن يجمع فيه بين إملاءات موروثة لم يتم هضمها ، وإملاءات مدروسة لم يحسن دارسوها الربط بينها وبين الموروثات ، فكان الانفصام الذى لا يلبث بعد أن يرتوى من الموروث والمدروس أن يجد المصالحة النفسية والعقلية

ولو أن (الدكتور) بعيد من المؤثرات السياسية ، والخضوع لأوهام الأُمَمِيّة ، التى يستهويه دوره فيها ، لأمكنه بقدر من المعرفة ، وبقدر من التواضع ، أن يجد نفسه فى محراب من المحاريب يسبح باسم الله .

ولو أن (الدكتور) أزاح عن عينيه وعن أذنيه العصابة الحمراء قليلاً لعرف ما يعرفه تلامذة المدارس من أن تاريخ العلم والعلماء ليس مقصوراً على الكافرين ، بل إن نسبة الملحدين من العلماء إلى المؤمنين – فى الأديان المختلفة – لا تكاد تصل إلى واحد فى المائة ، فمن أين له هذه الأحكام ؟ ألا يرى أنها آفة الرفض ، لوثت كل الآبار العذبة ، بالرغم من (الاعتراف الصحيح) بأن العلم لا يزال قاصرًا عن التعرف إلى كثير مما حولنا ، وإلى تعليل كثير مما عرف ؟!

* * *

ويقف وقفة قصيرة عند قصة السجود لآدم ، لأنه سيخصها ببحث آخر ، ثم يعلق على الآيات الكريمة (١٢/١٤) من سورة « المؤمنون » بقوله :

(وخلاصة القول هو أن نمو الخلية البشرية يشكل معجزة إلهية لا تعليل لها سوى قدرته المطلقة على الخلق ، وتدخله المباشر فى سير أمور الكون ، هل يتفق هذا الوصف والتعليل مع معارفنا العلمية عن الموضوع ، ومع ما يبينه لنا علم الأجنة حول تطور الخلية البشرية فى مراحلها الأولى ؟ الجواب هو حتمًا بالنفى ، لأن علم الأجنة لا يدَعُ مجالا للشك فى أن الخلية تنمو بالتطور العضوى من طور لآخر وفقًا لقوانين طبيعية معينة ، بحيث تنمو المرحلة المتأخرة من صلب المرحلة السابقة عليها ، وعلى أساس معطياتها الأولية ، كل ذلك بصورة تسمح لنا بالتنبؤ بتطور الخلية ، وبالمراحل المستقبلة التى ستمر بها ، وتمكننا من التحكم بنموها ، بحيث نستطيع تأخيره أو إسراعه ، أو تشويهه - إن شئنا ذلك – بتعريضها لمواد كيماوية معينة ، أو أنواع محددة من الأشعة) . ص ٤٠ .

ولنسأل السيد الدكتور :

من أوجد هذه القوانين الطبيعية التى تتحرك الخلية على هديها ؟

من هيأ الخلية لحمل الصفات الوراثية ؟

من جعل النواة قادرة على أن تتحول ذكرا أو أنثى أو خنثى ؟

من مكن النواة الأولى من أن تعتبر فردًا أو تنقسم إلى أفراد ؟

كيف لهذه الخلية أن تتحول إلى جهاز هضمى ، وجهاز تنفسى ، وجهاز عصبى ، وإلى مخ ، لو أريد صناعة مثله لكان المصنوع فى حجم الكرة الأرضية ؟

أنى للخلية أن تحمل كل إمكانيات العواطف الإنسانية ، والأفكار الإنسانية ، والتاريخ الإنسانى ؟

ماذا يقول الدكتور فى أن جسم الإنسان يحوى أكثر من مائة ألف نوع من البروتين ، وكل بروتين يعرف رسالته وتخصصه الدقيق ؟

لو أننا تناولنا عالم الروح الذى يحرك هذا التكوين المادى ، والذى لا يسهل على الدكتور إنكاره (ماديًا) ، فماذا هو قائل ؟

هل يختلف التكوين البيولوجى فى الإنسان عنه فى الحيوان ؟

ذكر أن العالم الألمانى هانس مان عثر فى المناطق القطبية على نوع من السمك يخلو دمه من الكريات الحمراء ، فكيف فرقت الطبيعة بين الكائنات الحية المختلفة ؟

لماذا كان الخير والشر فى طبيعة الإنسان دون سواه ؟

لماذا عقمت الطبيعة فلم تستمر فى إنجاب الأجيال المتطورة عن الخلية الأولى ؟

أسئلة كثيرة أجدر بالسيد الدكتور أن يشغل نفسه بها قبل أن يقول : (باستطاعتنا أن نتدخل فى سير الخلية) .. طبعا .. مادمنا تعرفنا على خط السير نستطيع أن نتدخل ، كما نتدخل فى مجرى النهر .. لكننا لا نستطيع أن ننشئ نهرًا ، ونسيّر سحبًا ، نسقطها لتغذى النهر ، وأن نخلق سمكًا ، وكائنات يتغذى عليها السمك ، ونوع الأسماك ولونها ، ونجعل بعضها يضيء والآخر يعتم .. إلخ ..

فكوننا نستطيع أن نتدخل بالتأثير على مرحلة النمو لا ينفى أن النمو خاضع لتقدير الخالق ، وتدخلنا رهن بمعرفة قدر من مكونات هذا (التقدير) ، لكنا لا نستطيع أن نخلق ، ولا نستطيع أن نضع القوانين . .

* * *

ويهاجم الأستاذ سيد قطب فيما تناوله (ص ١٦٥) من كتاب (الإسلام ومشكلات الحضارة) لأنه (يرفض نظرية التطور العضوى ، مع أنها توجت البحوث العلمية فى علم الحياة ، ونظرية فرويد ، مع أنها من أهم النتائج التى توصلت إليها البحوث العلمية فى مجال الدراسات النفسية ، ويرفض الماركسية أو الاشتراكية العلمية ، مع أنها أهم نظرية شاملة صدرت فى العلوم الاجتماعية والاقتصادية فى العصور الحديثة) ص ٤٣ .

ومن المعروف أن تلامذة دارون وفرويد وماركس اختلفوا معهم فيما انتهوا إليه ، لأنها مجرد (اجتهادات) قد تصيب وقد تخطئ ، ولم يقل العلم كلمته الأخيرة فيما ذهب إليه هؤلاء الأقطاب ولن يقول ، وهذه بديهية ، لا تجدى معها العبارات الاستهوائية مثل (أهم النتائج . . أهم نظرية) . .

ولا شك فى أن الأستاذ سيد قطب كان يتحرك من منطلق أن كل ما يتعارض مع الإرادة الإلهية فهو مرفوض ، وأن كل ما هو داخل هذه الإرادة خاضع لقيم أخلاقية ، وما خرج على هذه القيم فهو مرفوض ، فأنّى للسيد الدكتور وهو يتحرك من منطلق العبثية العدمية – أن يكون حكمًا فى فكر أخلاقى رشيد ؟! ثم يهاجم مجموعة من الكتّاب الإسلاميين والمسيحيين ، على أساس أنهم يعمدون إلى التوفيق بين الدين والعلم ، خضوعًا للانتصارات العلمية التى تكسب كل يوم أرضًا جديدة ، ليؤكد أن الدين ضد العلم . ص ٤٥ .

كما يهاجم الدول الإسلامية التى تسير فى ركاب أمريكا ودول الغرب ، ويهاجم المؤسسات الإسلامية التى « تحشد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والاجتهادات

الفقهية والشرعية ، لتبين أن موقف دولتها هو الحق بعينه » ص ٤٦ .

ثم يعرض لجانب هام يغشى حياة الفكر الدينى ، وهو محاولة الزج بالعلم المادى فى كل معرض دينى ، وإقحام الاكتشافات والمقررات العلمية على القرآن الكريم بصورة إعلانية عن معارف الكاتب دون مبرر . وللأسف راج مثل هذا اللون العابث فى أيامنا هذه ، فاستغله أعداء الدين ما وسعهم الاستغلال .

كتب يوسف مروة فى (العلوم الطبيعية فى القرآن) ، وقدم للكتاب سماحة الشيخ موسى الصدر والشيخ مصطفى الغلاييني [(قرر السيد مروة أن فى القرآن ٦١ آية فى علم الرياضيات ، و ٦٤ آية فى علم الفيزياء ، و ٥ آيات فى علم الذرة ، و ٦٢ آية فى النظريات النسبية ، و ٢٠ آية فى المناخيات ، و ٢٠ آية فى علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) إلى آخر اللائحة المعروفة لفروع العلم الحديث ، ويبرر السيد مروة هذا التوفيق التعسفى المحض بالكلام الآتى : بل إن الفيزيائيين والكيميائيين والجيولوجيين عندما يقرءون القرآن لا يرون فيه أى تناقض بين أبحاثهم وتجاربهم وبين الأفكار والمرامى العلمية التى تحملها الآيات القرآنية فى مواضيع اختصاصهم ، ذلك أن القرآن كتاب إلهى (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) الكهف - ٤٩ . و (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) الأنعام ٣٨)] .

و (تمكن السيد مروة من تحديد معنى اليوم الإلهى و « الثانية الإلهية » تحديداً رياضياً على أساس النظرية النسبية العامة ، ومن هنا توصل هذا العالم الفذ إلى قياس سرعة النور الإلهى) . ص ٥١ - ٥٤ .

محاولات أقرب إلى العبث منها إلى الروح العلمى تروج هذه الأيام ، وتجد من يصفق لها ، دون أن يدرى صاحبها أنه يسىء من حيث يريد أن يحسن ، وأنه يضيف عبئاً على الفكر الدينى ، ويفتح الطريق أمام أعداء الدين ليقولوا إنهم أعرف بطبيعة الدين ممن يتحدثون باسم الدين . . . فى هذا (خروج عن تعاليم الدين - من وجهة نظر الدين الذى يدافع عنه - لأنه خروج عن مبدأ التنزيه ، وسقوط فى

تشبيه الصفات الإلٰهية بالحادثات المادية ، بل هو سقوط فى أقصى أنواع التشبيه ، أى التجسيم ، النور الإلٰهى فى الدين هو طاقة روحية لامتناهية ولا محدودة – أى لا يمكن تحديدها كميًّا ورياضيًّا على طريقة مزورة – ولا يدرك كنهها إلاّ بالإيمان والسريرة والبصيرة الداخلية) ص ٥٥ .

وهكذا مكّن هؤلاء المبتدعون المتجاوزون أولئك الخارجين المارقين من أن يصبحوا معلمين مرشدين .

ولو أن هؤلاء المبتدعين وقفوا عندما حدّد الله من مفهوم القرآن : (هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان) البقرة – ١٨٥ (لتنذر به ، وذكرى للمؤمنين) الأعراف ٢ . (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم) (إبراهيم ١) .

لو أنهم درسوا الأسلوب القرآن وأسرار إعجازه ، وعرفوا على من نزل هذا اللسان العربى المبين .

لو أنهم أدركوا طبيعة رسالة الرسل والأنبياء ، ما كان لهم أن يفتروا على الله كذبًا ، وأن يدعوا على اللفظ القرآنى ما لا علم للعربية به زمن النزول .

ولهذا وجب ألّا ينهض لهذا الأمر الجليل أمر تفسير القرآن الكريم – إلّا من تأدب بآداب المفسر ، من طهارة النفس ، وفقه للغة ، وبصر بالبيان ، وعلم بالإنسان وتاريخه ، وبخاصة ذلك الإنسان العربى الذى نزل عليه القرآن الكريم[1] .

* * *

ثم يعرض للعلاقة بين الإنسان وربه ، معلقًا على قولهم عن الله : (كل ما يخطر فى بالك فهو خلاف ذلك) . . يقول : (توجد عدة اعتراضات على هذا الموقف :

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتابنا : المنهج البيانى فى تفسير القرآن الكريم ، وفى : القرآن والتفسير العصرى للدكتورة عائشة عبد الرحمن

أولا : هل بإمكانى أن أقيم أية علاقات جدية بينى وبين هذا الإله الذى تتجاوز طبيعته تجاوزًا مطلقًا منطقى ومشاعرى وأفكارى ومُثلى وآمالى ؟

هل بإمكانى أن أجد عزاءً فى إله جلّ ما أعرف عنه هو أنه مهما خطر فى بالى من أفكار وصفات فهو يختلف عنها اختلافًا مطلقًا ؟

إن وجود مثل هذا الإله وعدم وجوده سيان بالنسبة إلى . إن هذا الإله ليس إلّا تجريدًا فارغًا من كل معنى ومحتوى ، ولا يمكن لإرادة إنسان أن تتعلق بتجريد محض تجاوز بمراحل التجريد الذى وصفه أرسطو باسم « المحرك الأول » ، فإذا كان بإمكانك أن توجه ابتهالا أو دعاءً إلى « المحرك الأول » فمن المؤكد أنك لن تستطيع أن توجهه لإله لا يمكنك أن تصفه بشىء على الإطلاق ، لأنه بطبيعته مخالف لكل ما يرد فى ذهنك من أفكار وكل ما تنطق به من صفات .

ثانيًا : إذا كان الإله لا يوصف ولا يدرك بالنسبة للبشر ، فما معنى قولنا إذن بأنه « رحيم وبأنه عادل » ؟ عندما ننعت الله بالرحمة والعدل ، ماذا نعنى بهذه الصفات ؟ أليس هناك من شبه على الإطلاق بين الرحمة والعدل عندما نطلقها على الله وبين تصورنا الإنسانى لهاتين الصفتين ؟ إذا كان الجواب بالنفى ، هل تكون إذن أذهاننا فارغة من كل معنى وتصور عندما ننعت الله بالرحمة والعدل ؟ هل ننسب إليه كلمات لا معنى لها على الإطلاق بالنسبة للبشر ؟ فى الواقع ، إننا فى موقف حرج حيال هذا الموضوع ، فإما أن ننعت الله بالعدالة وفقًا لتصور يشبه إلى حد ما وبصورة غامضة تصورنا الإنسانى لهذه الصفة ، وإما أن يكون قولنا بعدالته كلامًا فارغًا من كل معنى ومحتوى ، أى أننا مرغمون إما على التشبيه ، وما يترتب عليه من عواقب ، أو على التنزيه التام ، وما يستتبع من نتائج) . ص ٧٢/٧٣

مجرد كلام ذى بريق ، لا يحمل دلالة ذات قيمة ، لأنه لا علاقة يمكن أن يقيمها المخلوق مع الخالق سوى الإجلال والطاعة ، (وما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون) الذاريات ٥٦ ، ثم الافتقار (إيّاك نعبد وإيّاك نستعين) الفاتحة ٥

وإذا كان الله أبعد من كل تصور ، فلأنه (نور السموات والأرض) . . (نور على نور) . النور ٣٥ وليس فى وسع العقل الإنسانى القاصر أن يحدّه ، وحسبه أن يتعرف عليه من خلال آثاره ، وهذا أبلغ فى التعظيم ، وأدعى إلى الطاعة الخالصة من كل رياء . .

أما صفات الله فهى من واقع آثار الله فينا ، وليست من واقع تعرُّفنا على ذاته ، لأن الربط بين الذات والصفات بهذا المفهوم الذى عناه الكاتب تنزيل الخالق – سبحانه – إلى صفات مادية تنزه عنها . .

ورحمة الله وعدله وبقية صفاته إنما هى مدركات لكمال الصفات ، وحسبنا – إذا عجزنا عن الإدراك – أن نتعرف إليها من خلال إخباره ، جل شأنه .

ولهذا وجب ألّا نسمى الله – سبحانه – إلّا بما سمّى به نفسه ، لا كما فعل السيد (الدكتور) حين سمى الله الماكر ، دون وعى للأسلوب البلاغى الوارد فى قوله تعالى : (ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين) . . الأنفال – ٣٠ .

* * *

ويختم بحثه ملخصًا الهدف بقوله :

« حسن أن يفرق بين الدين والشعور الدينى ، فالشعور فطرة ، والدين آداب والتزامات ، ولا يصلح أحدهما بغير الآخر ، ولهذا قيل : « دين الفطرة » ، جمعًا بين الدستور والحاجة إليه ، والرغبة فى تحقيقه والشوق إلى ثماره » ص ٧٨ .

لكن السيد (الدكتور) ، اتخذ من هذا التفريق وسيلة للخلاص من الدين ، اكتفاءً بالشعور به ، ليفرغ الدين من كل قيمه ، إلّا الإخلاص والتضحية والتسامى ، حتى يجد (الماركسى) فى كفاحه ما يشبع غريزة التدين فيه ، أو ليخدع الإنسان فيه عن هذا الشعور بالتسامى . . وكأنه – من خلال (بحثه) الطويل ، مع أنه لم يلتزم آداب البحث – إنما أراد أن يقول : لا حاجة إلى هذا الدين الذى

تدينون به ، لأنه صارف عن الماركسية ، وإذا كان لابد من دين ، فالماركسية دين .

مأساة إبليس :

محاضرة ألقيت فى النادى الثقافى العربى سنة ١٩٦٥ ونشرت بمجلة « الثقافة العربية » ، شباط سنة ١٩٦٦ م ، جعل شعارها قول جوتة على لسان فاوست : أنا روح رافضة أبدًا . .

وفيها يقول : (كان إبليس من المقربين بين الملائكة ، وكان له شأن عظيم فى نظام الملأ الأعلى ، إلى أن عصى أمر ربه ، فطرده من الجنة ، ولعنه لعنة أبدية ، فأصبح بذلك تجسيدًا لما هو شر ، وجمع فى ذاته كافة الخصائص التى تنتى عن الله ، ويلاحظ هنا أن اسمه يدل على جوهره ، وهو (الإبلاس) أى اليأس التام من رحمة ربه ، ومن العودة إلى الجنة (وفقًا للتفسيرات لمعنى الإبلاس) . . ص ٨١ .

وقد اعتمد – للأسف – على كتابات (إسلامية) واستغل الاجتهادات والعبارات (الملونة) فى خدمة الهدف الذى خطط له . .

وهو – منذ البداية – يلجأ إلى المغالطة ، فيختار من كتابات (الإسلاميين) ما يتفق وهواه ، وليس من شك فى أننا نجد فى كتاباتهم أقصى اليمين وأقصى اليسار ، بل إن فى كتابات المفكر الواحد جمعًا بين النقيضين فى مكانين مختلفين ، بسبب سيولة الكلمة ، والتهاب العاطفة ، وافتقاد المنهج .

ولنسأل : من قرر أن إبليس كان (من المقربين بين الملائكة) والنص القرآنى أنه (كان من الجن) ؟ الكهف – ٥٠ فلما قال له الله سبحانه : (ما منعك أن تسجد إذْ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين) الأعراف – ١٢ . والملائكة فى كتابات جمهرة الإسلاميين من نور والجن من نار ، إذن فإبليس

ليس من الملائكة ، وليس من المقربين ، هذا إلى أن عالم الملائكة والجن ليس مما ينكشف أمره لنا ، والحديث عنه اجتهاد ظنى ، لا مجال للقطع فيه ، وكلّ يفسر على وفق ما ترتاح إليه نفسه ، ولهذا نجد من يقول عن الملائكة : إنهم شخوص ، ومن يقول : إنهم قوى معنوية ورموز.. والذى يروج فى أقلام المفكرين المحدثين أنهم قوى معنوية ، ولو أننا أخذنا بهذا التفسير لوجدنا حلولَ كثير من المشكلات . . فإذا كانت الملائكة تمثل قوى الخير ، وإبليس يمثل قوى الشر ، فالأمر (فى القصة) أمر كونى ، بمعنى أن قوى الخير فى الإنسان تمثل الاستجابة والطاعة ، وقوى الشر تمثل العناد والمعصية ، والأسلوب القرآنى – فى عرض هذه الحقيقة أسلوب (تمثيلى) جرى فى عرض كثير من المعانى القرآنية ، كما فى الحديث عن الأمانة : (إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فَأبَين أن يحملْنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان) الأحزاب – ٧٢ ، وكما فى الحديث عن فطرة الإيمان بالله : (وإذْ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا) الأعراف ١٧٢ ، وغير هذا كثير فى حديث الجنة والنار . .

إذن فالمراد بعيد من مخالفة أمر الله ، وبعيد من (الواقع التشخيصى) الذى يتخيله السذج والبسطاء ، لأنه ليس من المعقول فى شىء أن يعصى الكائن خالقه (على مشهد منه) ، وهو يعلم قدرة الخالق على أن يقضى فيه ، ويعلم أن عصيانه لن يجديه ، ولن يحقق له رجاء .

هذا إلى أن (التشخيص) تجسيد ، وتشبيه ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا

* * *

ولقد أخذ الكاتب على ابن الجوزى فى (تلبيس إبليس) أنه (من حيث لا يعلم ولا يدرى) أسبغ على إبليس (قوى خلاقة مبدعة ، تثير الاعجاب والتقدير ، وعلى سبيل المثال ، يعزو ابن الجوزى معظم الحركات الدينية والفكرية الكبرى التى

قامت فى تاريخ الحضارة الإسلامية إلى عمل إبليس ، ويجعله مسئولا عنها ، فيحوله بذلك إلى فيلسوف كبير ، ومتكلم قدير ، يقول إمامنا المحترم : إن السوفسطائية ، والدهرية ، والطبائعية ، وأديان الشرق الأقصى ، والمسيحية ، وعلم الكلام ، وفرقة المعتزلة ، هى من أعمال إبليس ، ونتيجة لتلبيسه على المفكرين والعلماء ، كما أنه يرد حركة الخوارج ، والرافضة ، والزهد ، والتصوف ، إلى تلبيسه على أئمة هؤلاء القوم ، بما فيهم أبو طالب المكى والإمام الغزالى . . . إلخ) ص ٨٢/٨٣

وهو – فيما يعرض من كلام ابن الجوزى – إنما يقصد إلى السخرية من (الفكر الإسلامى) ، ممثلا فى هذا المسلك العاطفى الذى إذا رضى أغدق ، وإذا سخط أحرق ، ويجعل منه (الفكرة الشائعة) ، ثم يبنى على هذا (أن إبليس يسيّر قسمًا كبيرًا من مجرى الأحداث) ويكون شريكًا لله فى ملكه ، مع أن كلام ابن الجوزى لا يعدو النقمة على من لم يرض عنهم ، فوصف دوافعهم بالشر ، وبالشر صاروا أتباع إبليس (رمز الشرور) .

والكاتب يكشف عن هويته التى تختار وتلون المختارات ، كما تهوى ، مما يهوّن من أمره ، لأنه – كما يقولون – إذا عرف السبب بطل العجب ، وهو لا يوارى ولا يدارى ، بل يعلن صراحة :

(سأختتم هذا الجزء من بحثى بالتأكيد على أن كلامى عن الله وإبليس والجن والملائكة والملأ الأعلى لا يُلزمنى على الإطلاق بالقول بأن هذه الأسماء تشير إلى مسميات حقيقية موجودة ، ولكنها غير مرئية . إن تركيب اللغة يتطلب منّى بطبيعة الحال أن أكتب وأتكلم بطريقة معينة ، توحى فى الظاهر وكأن الشخصيات التى أذكرها موجودة بالفعل . ولكن يجب ألّا يخدعنا هذا الوهم اللغوى) ص ٨٦ .

وقد وجد بغيته فى كثير من العبارات التى تخضع فى تفسيرها لمعرفة حال صاحبها . وإلّا خدعنا عن حقيقة مدلولها (الوهم اللغوى) المتعلق بظاهر اللفظ . .

ولهذا لجأ إلى الصوفية الذين تتلون ألفاظهم بألوان موهمة لمن لن يألف أجواءهم النفسية . . استعان بكتابى (الطواسين) للحلاج ، و (تفليس إبليس) لعز الدين المقدس ، وكلاهما صوفى يعبر عن مشاعر خاصة ترتبط (بحال) يمر بها ، فإذا عبارته ذات ظاهر وباطن ، وكثيرًا ما ينزع ظاهرها منزع الخروج على التقاليد والأعراف الدينية . . وكان (الدكتور) ذكيًا فى استخدام النصوص (الصوفية) للوصول إلى هدفه .

(يقول الإمام عز الدين المقدس ، فى كتابه تفليس إبليس ، مخاطبًا الشيطان : وأنت الذى خلقك الله بيد قدرته ، وأطلعك على بدائع صنعته ، وألبسك خلع توحيده ، وتوجك بتاج تقديسه وتمجيده ، وجعلك تجول فى مجال ملائكته ، يقتبسون من نورك ويستأنسون بحضورك ، ويهتدون بعلمك ويقتدون بعملك ، فما برحت فى الملأ الأعلى ، تشرب بالكأس الأملى ، وتتلذذ بالخطاب الأحلى ، طالما ، كنت للملائكة معلمًا ، وعلى جميع الكروبين مقدمًا) . ص ٨٧ .

كلام تعجب صياغته ، وتغرب دلالته ، تحار من أين أتى بهذه الأفكار : (يقتبسون من نورك ، ويستأنسون بحضورك ، ويهتدون بعلمك ، ويقتدون بعملك) . . لكنها شطحات الصوفية ، يكفرهم بها ابن الجوزى وابن تيمية وابن قيم الجوزيه ، ويستغلها من لم يألف أسلوب القوم . وكان فى قلبه مرض ، ليتخذ منها وسيلة للتهكم والتهجم والانفلات .

ثم يورد الآيات القرآنية التى تحدث عن قصة السجود لآدم (البقرة ٣٤/٣٠) ، و (الحجر ٤١/٣٨) ، و (الأعراف ١٧/١٠) ، ويبين الفرق بين الأمر والمشيئة الإلهية ، ويعلق بقوله :

١ – (لا شك أن إبليس خالف الأمر الإلهى عندما رفض السجود لآدم ، غير أنه كان منسجمًا كل الانسجام مع المشيئة الإلهية ، ومع واجبه المطلق نحو ربه . .

٢ – لو وقع إبليس ساجداً لآدم لخرج عن حقيقة التوحيد وعصى واجبه المطلق نحو معبوده . . أراد الله للملائكة أن يقدسوه وأن يسبحوا باسمه ، لذلك كان السجود لآدم وقوعًا على ما يضيفه أهل الشرك إلى الذات الصمدية ، مما هى منزهة عنه ، إذ إن السجود لغير الله لا يجوز على الإطلاق لأنه شرك .

فى الواقع يثير اختيار إبليس سؤالاً هامًا جدًا ، هو : هل تكمن الطاعة الحقيقية فى الإذعان للأمر أم فى الخضوع للمشيئة ؟ هل يكمن الصلاح فى الانصياع للواجب المطلق أم لواجبات الطاعة الجزئية ؟

لو كان الجواب على هذا السؤال بسيطًا وواضحًا لما وجدت المأساة فى حياة الإنسان ، ولما وجد إبليس نفسه فى هذه المحنة ، ولما وقع بين براثن الأمر والمشيئة .

نستنتج إذن أن موقف إبليس يمثل الإصرار المطلق على التوحيد فى أصفى معانيه ، وأنقى تجلياته ، وكان لسان حال إبليس يقول : « جبين سجد للأحد لا يذل فى الوجود لأحد (تفليس ص ١٥) وعبر شهيد الصوفية الحلّاج عن هذه الحقيقة فى « كتاب الطواسين » بالكلمات الآتية : « التقى موسى وإبليس على عقبة الطور ، فقال : يا إبليس ، ما منعك عن السجود ؟ فقال : منعنى الدعوى بمعبود واحد ، ولو سجدت له لكنت مثلك ، فإنك نوديت مرة واحدة : (انظر إلى الجبل) فنظرت ، ونوديت أنا ألف مرة : « أن اسجد ، فما سجدت لدعواى بمعناى » (طاسين الأزل والالتباس) .

٣ – برر إبليس رفضه السجود لآدم تبريرًا منطقيًا واضحًا ، إذ قال : (أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين) ، وبالإضافة إلى ذلك تتضمن الآيات القرآنية التى أشرت إليها تبريرًا خفيًا لرفض إبليس ، وهو معرفته المسبقة بأن آدم وذريته سيعيثون فى الأرض فسادًا ، ويسفكون الدماء ، وكان هذا شعور الملائكة أجمعين ، عندما قالوا لربهم : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ....) أى كانت الملائكة بما فيهم إبليس ، على علم

بما سيرتكبه آدم وذريته من الكبائر والمعاصى فاستكبرت واستعظمت أن يخلق الله من يعصيه ويسفك الدماء – ص ٩١/٩٠ .

جدل تطمئن إليه بعض النفوس ، مادامت تجهل أن من معانى السجود الانقياد والتسخير ، (وهو الدلالة الصامتة الناطقة المنبهة على كونها مخلوقة ، وأنها خلق فاعل حكيم) – مفردات الراغب الأصفهانى الحلبى سنة ١٩٦١ ص ٢٢٤ – كما هو وارد فى قوله سبحانه : (ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض) النحل ٤٩ ومادامت تجهل أن من معانى الأمر تنفيذ سنة الله فى الخلق : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا) – الإسراء ١٦ .

ومن الآداب المعروفة أن يفسر القرآن بالقرآن ، ولاشك أن فهم السجود والأمر على هذا الأساس سيبطل سحر الساحر ، ولا يصبح مجالا لاتهام الملائكة بأنها أشركت ، أو بأنها (استكبرت واستعظمت أن يخلق الله من يعصيه ويسفك الدماء) ، لأن الخبر لا يعدو تقرير واقع جرى به أسلوب الحوار (التمثيلى) البليغ ، ولا يصبح مجالا لوصف إبليس (بالإصرار المطلق على التوحيد فى أصفى معانيه) ، لأنه سيترتب على هذا وصف الملائكة بخلاف ذلك ، ومن ثم ، يلتبس مفهوم الطاعة بالمعصية ، وهو ما يهدف إليه الكاتب . . ثم إن قول إبليس : (أنا خير منه) ينفى إرادة التوحيد ويصبح الموقف تعبيرًا عن زهو وكبرياء .

أما ما هو من أمر التعبير الصوفى فى هذا المجال وغيره فالصوفية يوظفون (الشخوص) توظيفًا فنيًا ، من أجل إبراز معانٍ متسامية ، ومن أجل الترجمة عن مشاعر أكثر شفافية وأنقى صفاءً ، وموقف الحلاج والمقدسى هنا رهن بتصوير التوحيد المطلق ، والارتباط بحدود القصة .

ولعل الحوار الذى أجراه الحلاج بين موسى وإبليس ليفيد أن الأمر أمر ابتلاء يكشف عن أن الحلاج إنما يعالج مشاعره الخاصة من خلال هذا التناول :

قال موسى لإبليس : تركت الأمر .

فأجاب إبليس : كان ذلك ابتلاءً لا أمرًا .

فقال له موسى : لا جرم ، قد غير صورتك .

فأجاب إبليس : يا موسى ، ذاوذا تلبيس ، والحال لا معول عليه ، فإنه يحول ، لكن المعرفة الصحيحة كما كانت ، وما تغيرت ، وأن الشخص قد تغير (عن طاسين الأزل والالتباس) .

ويأخذ على الأستاذ العقاد تفضيل آدم على الملائكة لأنه عرضة للخير والشر ، فى حين أن الملائكة ممنجاة من الغواية ، ويقول : إنها (دعوى فاسدة من أساسها للأسباب الآتية :

(ا) تبرهن قصة إبليس أنه حتى سادة الملائكة والقريبين منهم ليسوا بمنجاة من غواية الشر ، وإلّا لما عصى إبليس ربه ، وانتهى إلى بئس المصير .

(ب) لو افترضنا جدلا مع العقاد أن الملائكة ليست عرضة للخير والشر ، وإنما هى تفعل الخير دائمًا بطبيعتها وجوهرها . . . أيهما أفضل : الكائنات التى تصنع الخير أحيانًا ، وتصنع الشر أحيانًا أخرى ، فتفسد فى الأرض ، وتسفك الدماء ، أم الكائنات التى لا تصنع إلا الخير بصورة مستمرة ودائمة ؟

فهل يريد العقاد أن يجعل من قدرة آدم على الإفساد وسفك الدماء مصدرًا لسموه على الملائكة ؟ ص ٩٤ .

طبعًا لا يريد العقاد ذلك ، لأن العقاد يقصد إلى فكرة فلسفية ، مصدرها الأمانة التى حملها الإنسان ، وهى أمانة (الاختيار) وخوض التجربة . . . ولا شك فى أن معاناة الصراع بين الخير والشر ، بين الحق والباطل بين الواجبات ونوازع الشهوات - ترتفع بالمنتصر درجات .

ولو أننا فرضنا إمكانية المقارنة بين حال الإنسان هذا ، وحال من لم يبتل بهذه

المعاناة ، فإن تفضيل (الإنسان) سيكون أقرب إلى مدركاتنا ، دون حاجة إلى المغالطة فى وصف الملائكة بأنهم (ليسوا بمنجاة من غواية الشر) والبارى – جل شأنه – أخبر عنهم بقوله : (وهم لا يستكبرون ، يخافون ربهم من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون) النحل ٤٩/٥٠ . (لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون) التحريم ٦ .

وقد تنكشف المغالطة لو أننا أعدنا صياغة السؤال ، فقلنا ، أيهما أفضل : الكائنات التى تصنع الخير مختارة ، أم التى تصنعه دون اختيار؟

فكيف إذا أضفنا إلى اختيار الخير نوازع النفس الأمّارة بالسوء ، وبهرجة الحياة وزخارفها ؟!) .

والأستاذ العقاد شأن الكتّاب الإسلاميين – يفضل آدم على الملائكة ، لأن الله علمه الأسماء كلها ، فيرد عليه بقوله : (ولا شك أنه كان باستطاعة الملائكة تعلّم الأسماء كلها لو شاء الله ذلك) ص ٩٥ .

مع أن تعليم الأسماء مرتبط بالتجارب المتصلة التى يمر بها آدم فى المجتمع الإنسانى . فمعنى (علّم آدم الأسماء كلها) أعطاه القدرة على المعرفة ، ومجتمع الملائكة لا يوفر هذه المعارف لأنه ليس فى حاجة إليها .

ولو أننا قيدنا كل فعل بقولنا : (لو شاء الله ذلك) لما كان لأحد من المخلوقات كلها فضل .

ثم يقول : (إن جوهر إبليس أفضل وأسمى من جوهر آدم ، لأن الله خلقه من نار وخلق آدم من صلصال ، وهو الذى أراد للصلصال ألّا يسمو سمو النار) ص ٩٦ .

ولم يكن بشار (مفتيًا) فى هذا المجال ، حتى نقول : (والطين لا يسمو سمو النار) . . فالطين مادة أولية ، تشكلت ونفخ فيها من روح الله ، وقيمة المادة فى

القدرة على تشكيلها ، فإذا شكلت فى أحسن تقويم ، وكرمت ، فلا وجه لتفضيل النار عليها ، ثم إن إبليس يدعى هذه الدعوى ، وليس يقره عليها إلّا أمثاله من الأبالسه . . .

* * *

وتستهويه المعالجة الصوفية لهذه القضية (الإنسانية) فيمسك بظاهر اللفظ ليشوه القيم ، ويضرب ضربات (دونكيشوتية) واهمًا أنه يصيب مقاتلَ ، فيقول :

(عبر الحلاج عن محنة إبليس بإيجاز رائع بقوله : لمّا قيل لإبليس : اسجد لآدم ، خاطب الحق : أرفع شرف السجود عن سرى إلّا لك حتّى أسجد له ؟ إن كنت أمرتنى فقد نهيتنى) ص ٩٧ .

معان نفسية تعالج مفهوم (التوحيد) الخالص ، وتترجم عن وساوس وهواجس ، تنتاب (الإنسان) فى معركة طويلة مريرة ، يعرض عنها الكاتب ، لحاجة فى نفسه ، وتوصلا إلى عقد مقارنة بين محنة إبليس ومحنة إبراهيم عليه السلام ، لا ليرجح ، أو يوازن ، بل ليبال من قيمة أخلاقية كبرى ، ومن درس فى طاعة المخلوق للخالق ، لا أسمى ، ولا أبلغ . .

يقول : (خضع إبراهيم لأمر ربه ، ووضع المدية على عنق ولده ، خالف بذلك القواعد الأخلاقية المطلقة التى أنزلها الله على عباده ، عن كيفية معاملة الآباء للأبناء والأبناء للآباء) ص ١٠٢ .

إذن : (مأساة إبليس كانت أعظم وأفجع من محنة إبراهيم ، ولا يقول مأساة إبراهيم بسبب ذلك الكبش الذى ذبحه عوضًا عن إسحق ، لأن التناقض الذى واجهه إبليس لم يكن بين واجبات الطاعة الدينية ، وبين واجبات الطاعة الأخلاقية ، بل كان بين واجبات الطاعة للأوامر الإلهية فحسب ، بعبارة أخرى واجه إبليس الرب ، وهو يناقض نفسه ، بصورة مباشرة ومفضوحة ، فذهب ضحية هذا التناقض وضحية الموقف الذى اختاره ووقفه) ص ١٠٣ .

وتعجب لهذه (الوقاحة) فى عبارته (وهو يناقض نفسه بصورة مباشرة ومفضوحة)، لكن، بماذا أدب (الكفار) أنفسهم؟ إنه لا يكتفى بالكشف عن سوء أدبه وخبث طويته، بل يكشف عن غبائه فى تعامله مع عبارات الحلّاج فلا يدرك أن قوله:

(أفردنى، أوحدنى، حيرنى، طردنى، لئلا أختلط مع المخلصين. ما نحّنى عن الأغيار لغيرتى، غيرنى لحيرتى. حيرنى لغربتى، قبحنى لمدحتى، أحرمنى لهجرتى، هجرنى لمكاشفتى، كشفنى لوصلتى)... (طاسين الأزل والالتباس).

إنما هو ترجمة عن محنة نفسية عاشها الحلاج. من واقع تأملاته العميقة فى العلاقة بين الناسوت واللاهوت، وقد اتخذ من إبليس (مشجبًا) علق عليه (الزبد الخالد) الذى تفرزه سياحته الروحية... وقد سار سيرة الإمام المقدسى وهو يقول على لسان إبليس:

(ثم لكمال شقوتى سألت الإنظار، فصرت أضحوكة للحضار. أذوب إذا سمعت الذاكرين وأتمزق إذا رأيت الشاكرين. واحد أفر من ظله، وواحد أهرب من ذكر فعله، وواحد تحرقنى أنفاسه، وواحد يعجزنى مراسه، إذا تاب التائب قصم ظهرى، وإذا رجع الآيب نقص عمرى. كل ما بنيته مع العاصى فى سَنَة تهدمه التوبة فى سِنة، فأنا فى ويل لا يزول، وحرب لا يحول، وحزن شرحه يطول) ص ١٠٤/١٠٥.

فظاهر النصين ترجمة صوفية عن (حال) هى مزيج من الوجد والخوف والرجاء، وعلى طريقة الرمز فى الكتابة الأدبية اتخذ إبليس (معادلا موضوعيًّا) يسقط الكاتب الصوفى عليه مشاعره وانفعالاته الخاصة، ومن ثم، لا يحسن الاستشهاد بمثل هذه النصوص فى مجال (موضوعى)، يراد به (تعرية) الفكر الإسلامى، وبيان تأثير (الأسطورة) عليه!

(وصف الحلاج موقف إبليس من ربه بعد أن نزلت عليه اللعنة الأبدية فى محادثته التى تخيلها بين موسى وإبليس . . قال : قال موسى لإبليس : الآن تذكره ؟ فأجاب إبليس : يا موسى ، الفكرة لا تذكر ، أنا مذكور وهو مذكور ، ذكره ذكرى وذكرى ذكره ، هل يكون الذاكرون إلّا معًا ؟

خدمتى الآن أصفى ، ووقتى أحلى ، وذكرى أجلى ، لأنى كنت أخدمه فى القدم لحظّى ، والآن أخدمه لحظه) ص ١٠٩ (عن طاسين الأزل والالتباس) .

ونظر الإمام المقدسى إلى مصير إبليس وكبريائه نظرة غير مألوفة ، متأثرًا فى ذلك برأى الحلاج فقال :

(قال لى : اسجد لغيرى ، قلت : لا غير ، قال : عليك لعنتى ، قلت : لا ضير ، إن أدنيتنى فأنت أنت ، فقال : تفعل ذلك استكبارًا وفخارًا ؟ فقلت : سيدى ، من عرفك فى عمره لحظة ، أو خلا بك فى دهره غمضة ، أو صحبك فى طريق محبتك ساعة ، حق له أن يفتخر ، كيف بمن قد قطع الأعمار ، وعمر بحبك الآثار ، كم قد قمت فى صحائف توحيدك فى الليل والنهار ، كم قد درست من دروس تقديسك وتمجيدك فى الإعلان والإسرار ، والآثار تشهد لى ، والديار تعترف بحقى ، والليل والنهار يصدقنى) . ص . ١١ (عن تفليس ص ٢٢/٢١) .

هذه المناجاة - وهى لا تخرج عمّا جرى على لسان إبليس بقلم الحلّاج - ليست إلّا ترجمة نفسية للكاتب فى (حال) ، مردها الحس الواعى بالحضور الإلهى ، وبالرحمة التى وسعت كل شىء :

لم يبق عفوك فى السموات العُلا والأرض شبرًا خاليًا للنار

ومن هنا تتفتح أبواب الأمل والعزاء معًا ، الأمل فى المغفرة ، والعزاء فى الاستمتاع بالحضور ، حتى فى حالة (التجاوز) ، لأن التجاوز يذكر بالله ، كما تذكر الطاعة ، لأنهما ثمرة (إنشاء) إلهى ، و (إرادة) إلهية .

وهذا تصور شائع على ألسنة كثير من الصوفية المتأخرين ، وبخاصة ابن عربى

الذى دافع عن إيمان فرعون دفاعًا طويلا فى كتابيه (فصوص الحكم) و (الفتوحات المكية) . .

* * *

ثم فرق بين سجود الملائكة وعدم سجود إبليس بقول الحلّاج :

(سجدوا لآدم على المساعدة ، وإبليس جحد السجود لمدته الطويلة على المشاهدة ، لأنه هو الذى كان أعلمهم بالسجود ، وأقربهم من الموجود ، وأبذلهم للمجهود ، وأوفاهم بالعهود ، وأدناهم من المعبود) . . (طاسين الأزل والالتباس) .

وبما أن هذه الأوصاف لا مصدر لها إلّا خيال كاتبها ، فالحلاج إذن يعالج قضية فلسفية ، لا قصة دينية ، ومن ثم لا ينبغى تحميل النص القرآنى تأملات (ذاتية) لا تعبر إلّا عن رؤية نفسية متجردة ، لا يملكها إلّا صاحبها ، ولا يسهل على الكثيرين أن يمروا بنفس (حاله) ، وأن ينفعلوا بانفعاله .

* * *

وألح على مفهوم القضاء والقدر ، من أجل أن يبرئ إبليس مما ينسب إليه ، مستعينًا بقول المقدمى على لسان إبليس :

(إن زل أحدهم قال : إنما استزلهم الشيطان ، وإن نسى أحدهم قال : فأنساه الشيطان . وإن عمل أحدهم قال : هذا من عمل الشيطان ، فأنا حمّال أوزار المذنبين ، وحمال أثقال الخاطئين) . (تفليس ص ٣٦) .

مع أن إبليس لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا لأن الله هو صانع الخير والشر بدليل الحديث القدسى القائل :

« إن الله عز وجل – يقول : لا إله إلّا أنا ، خلقت الخير وقدرته ، فطوبى لمن خلقته للخير ، وخلقت الخير له ، وأجريت الخير على يديه ، أنا الله ، لا إله إلّا أنا ، خلقت الشر وقدرته ، فويل لمن خلقته للشر ، وخلقت الشر له ، وأجريت

الشر على يديه » (الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية ٧١) .

فإلى من يجب أن ينسب إبليس عصيانه وجحوده ؟ أو على حد قول إبليس : « فلئن كنت إبليس آدم ، فليت شعرى من كان إبليسى ؟ » (تفليس ١٦) .

وبطبيعة الحال أحال إبليس جحوده إلى مصدره الحقيقى والنهائى بقوله : (فبما أغويتنى) فأعطى بذلك لله ما لله ، ولم يعط لقيصر شيئًا ، لأن قيصر لا يملك شيئًا على الإطلاق بالنسبة لإبليس ، ولا حول له ولا قوة حتى ينسب له أى شىء ص ١٢٤/١٢٦ .

وهدف الكاتب من هذا كله أن يصل إلى (عبثية) محنة إبليس ، إن كان هناك إبليس ، وليطعن فى مفهوم العدالة الإلهية ، إنْ صحت هذه القصة ، وليسخر من الموقف كله بقوله مدافعًا عن إبليس :

« تمسك إبليس بحقيقة التوحيد تمسكًا لا مثيل له ، ولذلك لا يمكن أن ينتهى فى جهنم ، عملا بالحديث القدسى القائل : « قال الله عز وجل إنى أنا الله ، لا إله إلّا أنا ، من أقر لى بالتوحيد دخل حصنى ، ومن دخل حصنى أمن عذابى » (الاتحافات السنية ٤) .

(ولقد) نجح إبليس فى التجربة التى ابتلاه الله بها ، وصبر على البلاء الذى حل به ، من جرائها ، وعليه ، فإن مكافأته النهائية مضمونة بدليل الحديث القدسى القائل : « قال الله عز وجل إذا ابتليت عبدًا من عبادى مؤمنًا فحمد منى ، وصبر على ما ابتليته ، فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته أمه من الخطايا ، ويقول الرب للحفظة : إنى قيدت عبدى هذا ، وابتليته ، فأجروا له ما كنتم تجرون له قبل ذلك من الأجر » (الاتحافات السنية ١٠) .

ثم يقول معقبًا على هذا كله ساخرًا :

(أعتقد : **أولا** : أنه يجب علينا إدخال تعديل جذرى على نظرتنا التقليدية إلى إبليس ، وإحداث تغيير جوهرى فى تصورنا لشخصيته ومكانته .

ثانيًا : يجب أن نرد له اعتباره – بصفته ملاكًا يقوم بخدمة ربه بكل تفان وإخلاص ، وينفذ أحكام مشيئته بكل دقة وعناية .

وأخيرًا : يجب أن نكف عن كيل السباب والشتائم له ، وأن نعفو عنه ، ونطلب له الصفح ، ونوصى الناس به خيرًا بعد أن اعتبرناه – زورًا وبهتانًا – مسئولا عن جميع القبائح والنقائص) ص ١٢٨ .

ثم يحذرنا من مغبة رد الاعتبار لإبليس ، مستشهدًا بمسرحية (الشهيد) لتوفيق الحكيم ، التى يقول فيها جبريل مخاطبًا إبليس :

(زوالك من الأرض يزيل الأركان ، ويزلزل الجدران ، ويضيع الملامح ، ويخلط القسمات ، ويمحو الألوان ، ويهدم السمات ، فلا معنى للفضيلة بغير وجود الرذيلة . . ولا للحق بغير الباطل . . ولا للطيب بغير الخبيث . . ولا للأبيض بغير الأسود . . ولا للنور بغير الظلام . . بل ولا للخير بغير الشر . . بل إنّ الناس لا يرون نور الله إلّا من خلال ظلامك . . ووجودك ضرورى فى الأرض ، ما بقيت الأرض ، مهبطًا لتلك الصفات العليا التى أسبغها الله على بنى الإنسان) ص ١٢٨ .

* * *

وبعد . . . . فالكتاب فيما عدا هذين (البحثين) – لا يكاد يحرك ساكنًا . . .